الجزء الثاني من السنة الثالثة من المقتطف

العرب وبعض مآثرهم

صنائع الاندلسيين وثروتهم

لولا ضيق المقام لافردنا لكل باب من ابواب صناعة الاندلسيين فصلاً مخصوصاً لكبر قيمة فوائده فما نذكرهُ منها الآن نذكرهُ مجملاً بحيث يستدلُّ القارئ على ثروتهم من صنائعهم وصنائعهم من ثروتهم وفضلهم من صنائعهم وثروتهم وعلومهم وسيجيء تفصيل علومهم في جزء آخر ان شاء الله. فنقول

يظهر من تاريخ العرب عموماً والاندلسيين خصوصاً ان متاجرهم بلغت الآفاق براً وبحراً في زمان الخلفاء وانهم فاقوا غيرهم في التجارة والزراعة وبرعوا في استخراج المعادن وسبكها وفي البناء والحياكة والصياغة والصباغة والدباغة والنقش والدهن والتذهيب والزخرفة على انواعها. قالوا كانت مالقة (بالاندلس) من اشهر الامصار بصنع الفخار المذهب العجيب ترسله الى اقاصي البلاد وكانت خيراتها كثيرة من عنب وتين ولوز ورمان مرسي ياقوتي لا نظير له واشتهرت اشبونة بعنبرها وسمكها واشبيلية بمتاجرها العظيمة وزيتونها وتينها حتى ان الماشي كان يمشي في ظل زيتونها وتينها اربعين ميلاً طولاً واثني عشر ميلاً عرضاً واشتهر اهلها بحب الغناء والخلاعة وفنّ التطريب. واشتهرت كورة باجة بمعدن الفضة الذي فيها وبدباغة الاديم وصناعة الكتان . وفاقت المرية سائر المدن بصنعة ديباجها ودار صناعتها حتى قال بعضهم كان فيها لنسج طراز الحرير ثماني مئة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر الف نول وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية مثل ذلك وللعنابي والمعاجر المدهشة والستور المكلّلة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف. وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً ووادياها طوله اربعون ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وانهار مطردة وطيور مغردة. وقيل لم يكن في بلاد الاندلس اكثر مالاً من اهلها ولا اعظم منهم متاجر وذخائر وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف ولجودة ارضها قيل كانما غربلت من تراب . واشتهرت شنترة بجودة ارضها وحسن غرسها. قال ابن البسع ان التفاح فيها دور كل واحدة ثلثة اشبار واكثر وقال نقلاً عن ابي عبد الله البأكوري وكان ثقة ان رجلاً من اهل شنترة اهدى الى المعتمد بن عباد اربعاً من التفاح ما يقلّ الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة اشبار. وذكر هذا الرجل بحضرة ابن عباد ان المعتاد عندهم اقل من هذا فاذا ارادوا ان يجيء بهذا العظم

وهذا القدر قطعوا اصلها وابقوا منه عشرًا او اقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب . وكان بجوار المرية توت كثير وبها حرير وقرمز . وكانت مرسية تُسمَّى البستان لكثرة جناتها والورق يعمل بشاطبة من اعمال بلنسية . وبالاجمال كان اهل الاندلس خبيرين باستعمال الاطياب والعقاقير والادوية وباستخراج التجارة الكريمة والمعادن فكانوا يستخرجون العنبر وعود الالنجوج العطر الرائحة والمحلب والقسط والسنبل والجنطيانة والمرّ والكهرباء والفرمز وحجر اللازورد وحجر النجادى والبلور والياقوت الاحمر الاّ انهم لصغره لم يستعملوهُ والمغناطيس وحجر الشادنة يستعملونهُ في التذهيب والذهب والفضة والنحاس والزئبق يجهزون به منها الى الآفاق والكبريت والتوتيا والنحاس والحديد والشب والكحل وقيل كانوا يصبغون النحاس بالتوتيا وكانوا يتجرون بالزعفران والزنجبيل ويلتقطون المرجان عن سواحلهم

فاذا تامل القارئ في كثرة هذه المواد وما ينهال منها على البلاد من سيول الثروة وضمّ اليها نخوة العرب وعظم اقدامهم على الاعمال يتبين لهم ان الاندلس صارت تحت يد العرب جنة العالم وتحقق صدق واصفيها والقائل فيها

وكيف لا يبهج الابصار روضٌ بها ... وكل روض بها في الوشي صنعاء
انهارها فضةٌ والمسكُ تربتها ... والخرُّ روضتها والدرُّ حصباء
وللهواء بها لطفٌ يرقُّ به ... من لا يرقُّ وتبدو منه اهواء
ليس النسيمُ الذي يهفو بها سحرًا ... ولا انتشار لآلي الطل انداء
وانما ارَجُ الندّ استثار بها ... سقي ماءِ وردٍ فطابت منه ارجاء

واتقن شيء في مصنوعات الاندلسيين مبانيهم فاهل الصناعة والذوق في هذه الايام لا يزالون يقرّون لهم بحسن المباني ايّام كان سواهم من اهل اوروبا لا يسكن غير البيوت الحقيرة . واشهر من شاد المباني الباذخة الخليفة الناصر اكبر سلاطين بني اميّة واعظمهم شانًا وخطرًا وقد صدق عليه قول من قال

وما زلت اسمع ان الملو ... ك تبني على قدر اخطارها

وكان الناصر كلفًا بعمارة الارض واقامة معالمها وانبساط مجاهلها واستجلابها من ابعد مقاماتها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك . واستتمام السلم والعدل في ايامه واتسع نطاق الحضارة وامتدّ العمران وراجت سوق الزراعة والتجارة ففاضت على الاندلس ينابيع النعم واحدقت بها مجاري الثروة فكانت جبايتها ستة آلاف الف دينار سنويًا وكان عدد مدنها ثمانين مدينة كبيرة وثلاث مئة مدينة صغيرة وعدد قراها ومزارعها اثني عشر الف قرية ومزرعة على ضفتي النهر الاكبر . وكان بمدينة قرطبة وحدها مئتان وستون الف دار والف وست مئة مسجد وتسع مئة حمام والف نسمة . وقال ابن سعيد حسبما ذكرهُ الشقندي ان العمارة اتصلت في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انهُ كان يمشي فيها لضوء السرج المتدّة عشرة اميال انتهى . واشهر ما بناهُ الناصر مدينة الزهراء التجوبة زمانها وفريدة

هذه الايام لو بقيت وبها فاقت قرطبة سائر البلدان حتى صارت في الاندلس كالراس في البدن . قال فيها بعض علماء الاندلس

باربع فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هذان اثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

واصل بناء الزهراء على ما رواهُ بعض مؤرخي العرب والافرنج انهُ كان للناصر جارية تُسمَّى الزهراء وكان يحبها حبًّا شديدًا فطلبت منهُ ان يبني مدينة باسمها تكون خاصَّة لها فبنى اولاً قصر الزهراء الشهير ثم بنى الزهراء حوله على بعد ما بين اربعة وخمسة اميال من قرطبة والى الشمال منها تحت جبل يُسمَّى جبل العروس وقطع اشجار الجبل وغرسهُ تينًا ولوزًا ولم يكن منظر احسن من منظر الزهراء ولا سيما في زمان الازهار وتفتح الاشجار . وكان طولها على قول ابن خلكان ٢٧٠٠ ذراع من الشرق الى الغرب وعرضها ١٥٠٠ ذراع من الشمال الى الجنوب . ونصب فيها اربعة آلاف وثلاث مئة سارية من الرخام النفيس وجعل لها اكثر من خمسة عشر الف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموَّه . وقال ابن حيان نقلاً عن ابن دجون الفقيه عن مسلمة بن عبد الله العريف المهندس العربي الشهير انهُ كان مبلغ ما ينفق في الزهراء كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدَّل ستة الاف صخرة سوى الصخر المنصرف في التبليط فانهُ لم يدخل في هذا العدد . وكان يخدم في الزهراء كل يوم الف واربع مئة بغل وقيل اكثر منها اربع مئة زوامل الناصر لدين الله ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة الف بغل وكان يرد الزهراء من الجير والجص في كل ثالث من الايام الف ومئة حمل . وقدَّر بعضهم النفقة فيها كل عام بثلث مئة الف دينار مدَّة خمسٍ وعشرين عامًا وبقي بناؤها اربعين عامًا . اما رخامها ورخام السواري فبعث عرفاء بنائيهِ الى سائر الآفاق يجلبونهُ لهُ فجلبوا الابيض والمجزَّع من الاندلس والوردي والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة . ونصب فيها حوضًا منقوشًا مذهبًا غريب الشكل غالي القيمة جلبهُ اليهِ احمد اليوناني من القسطنطينية وحوضًا صغيرًا اخضر منقوشًا بتماثيل الانسان جلبهُ من الشام وقالوا انهُ لا قيمة لهُ لفرط غرابتهِ وجمالهِ قال المقري

ونصبهُ الناصر في بيت المنام في مجلسهِ الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليهِ اثني عشر تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي ما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة اسد الى جانبهِ غزال الى جانبهِ سماح وفيما يقابلهُ ثعبان وعقاب وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من افواهها . انتهى

ستأتي البقية

رأينا في جريدة مصر ورسالة مفادها ان الوقائع المصرية اقدم من حديقة الاخبار السورية بثلاثين سنة